من تاريخ الطب الاسلامى

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر

— ٧ —

٦ — البيمارستانات فى البلاد الاسلامية :

لقد أشرنا فى حديثنا السابق إلى مطالعات الأطباء المسلمين بجانب سرير المريض ، ولتوضيح الناحية العملية من الطب الإسلامى وأعمال الأطباء فى البيمارستانات وطريقة تمريض المرضى وعلاجهم وحالة دور الشفاء عندهم لا بد من أن نلق كلمة عن هذا الموضوع :

يأمر الدين الإسلامى مثل سائر الأديان السماوية بالرفق والشفقة ويدعو إلى البر بالفقراء والإحسان إليهم ومواساة المرضى والعجزة ؛ وقد كان تمريض المجروحين ومواساتهم والعناية بأمرهم من أهم الأمور التى كان يعيرها النبى صلى الله عليه وسلم اهتماماً خاصاً فى غزواته . فقد جاء فى سيرة ابن هشام أن سعد بن معاذ أصيب فى غزوة الخندق فى شوال من العام الخامس الهجرى بسهم فى الأكحل[1] فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يوضع فى خيمة رفيدة الأسلمية ، وكانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين قائلا : اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب . ويمكن اعتبار خيمة رفيدة هذه أول مستشفى حربى متنقل عند المسلمين .

وبعد ذلك ازداد عدد هذه المستشفيات المتنقلة التى كانت تسمى بالبيمارستانات المحمولة[2] مقابل البيمارستانات الثابتة .

وهذه البيمارستانات المحمولة زيادة على استعمالها فى الحروب كانت تنقل من مكان إلى آخر ، وكانت مجهزة بكل ما يلزم المرضى عادة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ما يعين على تمريض المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين وكانت تنقل من بلد إلى أخرى من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة .

يقول ابن أبى أصيبعة نقلا عن ثابت بن سنان :

إن الوزير على بن عيسى بن الجراح فى أيام تقلده الدواوين من قبل المقتدر بالله وتدبير المملكة فى أيام وزارة حامد بن أبى العباس وقع إلى والده سنان بن ثابت فى سنة كثرت فيها الأمراض جداً وكان سنان يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها توقيعا جاء فيه : « فكرت مد الله فى عمرك فى أمر من فى الحبوس وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم ممنوعون عن التصرف فى منافعهم وإلقاء من يشاورونه من الأطباء فى أمراضهم فينبغى أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم فى كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات (والمزورات هى حساء من الخضر دون لحم أو دسم أو البهرز فى اللغة الدارجة) وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا علتهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى » ففعل سنان ذلك[1]

ثم وقع إليه توقيعاً آخر :

« فكرت فى من بالسواد من أهله وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم فخلو السواد من الأطباء ، فتقدم مد الله فى عمرك بإيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد ويقيمون فى كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره » .

فنفذ سنان هذا الأمر وانتهى أصحابه إلى (سورا) من بلاد العراق وكان معظم أهلها من اليهود فكتب سنان إلى الوزير يخبره أن بعض أصحابه كتب إليه من السواد يستأذنه فى المقام هناك لعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم وإنه لا يعلم بم يجيبهم لأنه لا يعرف رأيه فى أهل الذمة . وقد عرض عليه فى كتابه هذا أن الطريقة المتبعة فى بيمارستان الحضرة هى علاج المالى والذمى ؛ فوقع له الوزير توقيعاً أخبره فيه أن يقدم معالجة المسلمين على أهل الذمة ، فإذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف فى الطبقة التى بعدهم — أى أهل الذمة — وقال « فاعمل أكرمك الله

(١) الأكحل الوريد .

(٢) ويعبر عنها الآن بالفرنسية بكلمة Am bulance

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ٢٢١

على ذلك واكتب إلى أصحابك به ووص بالتنقل فى القرى والمواضع التى فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية »(١) .

وكانت عادة السلاطين فى دولة المماليك أنهم عند ما كانوا يخرجون إلى القصور التى كانوا قد بنوها خارج المدن للاقامة أياما فيها ، أن يصحبهم فى السفر غالباً حاشية من الأمراء والأعيان ومعهم كل ما تدعو إليه الحاجة حتى يكاد يكون معه بيمارستان كامل لكثرة من معه من الأطباء والكحالين والجراحين والفصادين والأشربة والعقاقير وغيرها .

وكان الأمراء المسلمون أيضاً يستعملون فى حروبهم البيمارستان المحمول وكان يحمله ويحمل الآلات والأدوات والأدوية والعقاقير اللازمة عدد من الجمال خصصت لذلك(٢) .

أما البيمارستانات الثابتة فهى ما كان بناؤها ثابتا فى مكان خاص ؛ وكان هذا النوع موجوداً فى معظم البلاد المهمة ولاسيما فى العواصم الكبرى وكان فى بعضها أكثر من بيمارستان واحد ولا تزال آثار بعضها باقية إلى الآن كالبيمارستان المنصورى أو (قلاوون) والبيمارستان المؤيدى بالقاهرى والبيمارستان النورى بدمشق وغيرها .

وكانت هذه البيمارستانات بوجه عام منقسمة إلى قسمين منفصلين قسم للذكور وآخر للاناث ، وكل قسم مجهز بما يحتاجه من آلات وعدد وخدم من الرجال والنساء(٣) وفى كل قسم منهما قاعات مختلفة فقاعة للامراض الباطنية وأخرى للجراحة وثالثة للكحالة ورابعة للتجبير ، إلى غير ذلك من القاعات .

وكانت هذه الأقسام الخاصة مقسمة بدورها إلى شعب وأقسام فرعية مثل الفرع الخاص بالمحمومين والفرع الخاص بالمعرورين أى المجانين ، والفرع الخاص بالمصابين بالأمراض العادية والأسهال وغير ذلك . وكانت البيمارستانات تقام فى أماكن حسنة الموقع طيبة المناخ .

يروى بعض المؤرخين فى ترجمة حياة محمد بن زكريا الرازى أنه عند ما طلب إليه أن يختار محلا مناسباً لبناء بيمارستان فى بغداد أمر أن يعلقوا قطعا من اللحم الغريض فى أماكن مختلفة من المدينة ثم اختار المحل الذى كان تعفن اللحم فيه متأخراً عنه فى سائر الأماكن لبناء المستشفى المطلوب .

وكان من شروط انتخاب المحل المناسب لبناء البيمارستان أن يكون فيه ماء جار .

وكان لكل بيمارستان شرابخاناه أى صيدلية (والكلمة محرفة عن شرابخانة الفارسية ومعناه خزانة الشراب) ولكل شرابخاناه (مهتار) أى رئيس (وهذه الكلمة أيضاً محرفة عن مهتر الفارسية بمعنى الرئيس أو الكبير) وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل واحد منهم (شراب دار)(١) .

ومما يسترعى النظر كثرة الأسامى والمصطلحات الطبية الفارسية التى كانت شائعة فى اللغة العربية ويدل ذلك على نفوذ الأطباء الايرانيين وأثر مدرسة جند يسابور منذ عهد الساسانيين، حتى أن العرب استعملوا نفس هذه المصطلحات واللغات الفارسية عينا أو بتحريف يسيط فى كتاباتهم ومحاوراتهم ؛ فكلمة (بيمارستان) أو مخففتها (مارستان) شائعة ومتداولة فى اللغة العربية أكثر من كلمتى المستشفى أو دار الشفاء .

وكانت كلمة (بيمارستان) تطلق فى بادىء الأمر على المستشفيات التى تعالج فيها الأمراض بصورة عامة ؛ أما بعد ذلك لما أصابتها الكوارث وحل بها البوار وهجرها المرضى أقفرت إلا من المجانين حيث لا مكان لهم سواها فصارت كلمة (مارستان) وهى تحريف بيمارستان لا تنصرف إلا إلى مستشفى المجاذيب .

وكان لكل بيمارستان ناظر يشرف على إدارته ، وكان النظر عليه يعد من الوظائف الديوانية العظيمة ، وكان تحت إدارته عدد من أرباب الوظائف فى البيمارستان وهم :

١ — رئيس الأطباء وهو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى التطبيب ونحو ذلك .

٢ — رئيس الكحالين وحكمه فى الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء فى طائفة الأطباء : — رئيس الجراحية(٢) .

(١) بتلخيص من طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الجزء الأول صفحة ٣١٠

(٣) طبقات الأطباء الجزء الأول

(١) صبح الأعشى للقلقشندى الجزء الرابع صفحة ١٠

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى الجزء الثانى صفحة ١٦٨ والجزء ١ من الصفحة ١١٧ وصفحة ٤٦٨

وكان لكل طبيب حسب درجته ومقامه مرتب خاص وله زيادة على المرتب جامكية وصلات وعلوفة لدابته من الخلفاء والملوك والأمراء .

يقول القفطي وابن أبي أصيبعة أن معدل المرتبات الشهرية للأطباء كان كالآتي :

١ — أطباء الخاص (أي المنقطعون للخليفة أو السلطان) وكان عددهم اثنين لكل منهما في الشهر خمسون ديناراً (وكل دينار حوالي خمسة عشر فرنكا فرنسياً ذهباً (١) أي ستين قرشاً مصرياً تقريباً) .

٢ — أطباء الدرجة الثانية وهم ثلاثة أو أربعة ، وكان بعضهم يقيم بالقصر ولكل منهم عشرة دنانير ؛ وكان بعضهم طبيباً بالبيمارستان أيضاً فكان له رزقان أي ثلاثون ديناراً في كل شهر مثل رضي الدين الرحبي طبيب صلاح الدين الأيوبي ، فقد أطلق له صلاح الدين ثلاثين ديناراً في الشهر ويكون ملازما للقامة والبيمارستان ؛ وكان للبعض الآخر مثل جبرائيل الكحال ألف درهم كل شهر (والدرهم نصف فرنك فرنسي ذهب أو قرشان مصريان) .

يقول المقريزي إن أول من بنى البيمارستان في الاسلام ودار المرضى هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة ٨٨ هجرية وجعل فيها الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحبس المجذومين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الارزاق .

وكان في البيمارستان طريقان للعلاج . علاج خارجي أي أن المريض يتناول الدواء من البيمارستان ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله ، وعلاج داخلي يقيم المريض في أثنائه في البيمارستان في القسم والقاعة الخاصة بمرضه حتى يشفى (٢) .

ففي الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس في محل خاص ويعاين المرضى ويعطيهم العلاج اللازم ؛ وبما أن هذه المعاينة وهذا العلاج كانا يتمان في البيمارستان غالباً فقد كان يجتمع التلاميذ بحضرة أستاذهم يعاينون معه المريض ويعرفون كيفية استدلاله على المرض من أعراضه وعلائمه ، وجملة ما يصفه له ، والعلاج الذي يعالجه به ، ومقدار الأدوية والعقاقير التي يوصي بها وطريقة استعمالها .

(١) الخطط التوفيقية لعلي مبارك باشا الجزء الرابع صفحة ٤٦

(٢) تاريخ البيمارستان في الاسلام للدكتور أحمد عيسى بك صفحة ٣١

يروى ابن النديم وكان معاصرا لمحمد بن زكريا الرازي نقلا عن شيخ من أهل الري (أن الرازي وكان شيخاً كبيراً كان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من تلقاه فان كان عندهم علم والاتعداهم إلى غيرهم ، فان — أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك (١) .

إن هذه الطريقة تشبه إلى حد كبير الطريقة المتبعة الآن أو التي يجب أن تتبع في حالة مداولة الأطباء عن فحص المريض consultation فإن الأطباء بعد أن يعاينوا المريض يجتمعون للمداولة في غرفة خاصة ويبدأ الحاضرون بابداء آرائهم في حالة المريض متدرجين من أصغرهم سناً إلى أكبرهم ؛ وذلك لأن الأطباء الكبار والمشهورين إن أبدوا رأيهم في ذلك ربما خجل الطبيب الأصغر منهم بحكم سنه وإجلاله للطبيب الأكبر منه سناً ومقاماً من إبداء رأي يخالف ذلك ، وقد يكون أحياناً أحسن من رأي غيره وأقرب إلى الصواب .

والخلاصة أن دراسة الأطباء لحالة المريض بجانب سريره ومطالعاتهم في البيمارستانات وأخذهم دروساً عملية كانت تعد في تلك العهود — وكانت العلوم فيها على الأغلب الأعم نظرية ذات أهمية خاصة بالنظر لأهمية الطب والتبعة التي تقع على عاتق المشتغل به وللمهارة التي تستلزمها هذه المهنة .

وإن شطراً هاماً من كتاب الحاوي للرازي مخصص لهذه الدروس الطبية (الأكلينيكية) . ومنه فصل بعنوان (أمثلة من قصص المرضى) ، يذكر فيه الحالات النادرة التي تردد فيها في تشخيص المرض ، وفي كل حالة يذكر اسم المريض وأعراض المرض وطريقة العلاج ونتيجتها .

ويذكر الأستاذ بروان في كتابه الطب الإسلامي (Arabian Medicine) حالة من هذه الحالات مع ذكر النص العربي وهو كما يأتي :

(كان يأتي عبد الله بن سوادة حميات مخلطة تنوب مرة في ستة أيام ، ومرة غب ، ومرة ربع ، ومرة كل يوم ويتقدمها نافض يسير ، وكان يبول مرات كثيرة ، وحكمت أنه لا يخلو أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعاً ، وإما أن يكون به خراج في

(١) الفهرست طبعة مصر صفحة ٤١٥ وطبعة ليبزيك صفحة ٢٩٩